نحن واللغة العربية

— ٥ —

اللغة العربية في العصر الحاضر : ح . [في الشام]

للأستاذ مصطفى الشهابي

ذكرت في أحد أحاديثي السابقة أن المدارس الأهلية في ديار الشام ، إسلامية كانت أم نصرانية ، هي التي كانت تعنى بتدريس لغتنا الضادية ، أيام الدولة العثمانية .

أما مدارس تلك الدولة فقد كانت تعد التركية هي الأصل وتعد العربية لغة ثانوية لا تدرس إلا على قدر حاجة اللسان التركي إلى اللسان العربي .

فلما تأسست الحكومة السورية العربية سنة ١٩١٨ ، وأصبح الشام كيان قومي مستقل سعت همة رجالنا إلى تحقيق الأغراض الآتية وهي : أولاً ـ نقل دواوين الحكومة من التركية الى العربية ثانياً ـ رفع مستوى الثقافة العامة بتزييد عدد المدارس على مختلف أنواعها . ثالثاً ـ تدريس اللغة العربية تدريساً وافياً وجعلها لغة التعليم لجميع العلوم الدراسية في مدارس الحكومة كافة .

وقد تحققت هذه الأغراض الثلاثة فافتتحت المدرسة الطبية وفروعها ، وأسست مدرسة الحقوق ، وتألفت الجامعة السورية من هذا المجموع . وفتحت دور للمعلمين والمعلمات في دمشق وحلب ، ومدرسة تجهيز في كل لواء (محافظة) ، ومدارس ابتدائية كثيرة ، ومدرسة صناعية في دمشق ، وأخرى في حلب ، ومدارس للأشغال اليدوية النسائية ، ومدرسة زراعية في الغوطة نقلت بعدئذ الى سلمية . وجعلت العربية لغة تدريس العلوم في جميع هذه المدارس .

ولما مست الحاجة إلى إيجاد مصطلحات علمية للمدارس ولدواوين الحكومة ولا سيما الجيش ، أنشئت لجنة للترجمة كانت نواة للمجمع العلمي العربي بدمشق . ثم لما دخل الفرنسيون البلاد الشامية الداخلية في سنة ١٩٢٠ ، حتى بعض رقائنا إضرارهم باللسان العربي ، وهو أهم مظهر لكياننا القومي ، وخافوا أن يعود هذا اللسان بهم الى ما كان

عليه أيام الدولة العثمانية من الانحطاط . لكن الأيام أثبتت أن هذا الحذر لم يكن في محله . والحقيقة التي يجب أن تقال هي أن الفرنسيين ، على الرغم من خططهم السياسية السقيمة ، لم يحاربوا التعليم ولا اللغة العربية في ديار الشام . بل لبثت العربية لغة الدواوين الحكومية في مدارسها ، ولغة تعليم الدرك والشرطة في سورية . أما في لبنان فالمدارس الابتدائية كانت تدرس بالعربية ، ومدارس التجهيز تدرس بعض العلوم بالعربية وبعضها بالفرنسية . وأما الدرك اللبناني فكان يتعلم بالفرنسية على حين أن مراسلاته مع الحكومة والأهالي هي بالعربية .

والذي سعى إليه الفرنسيون هو تعليم الفرنسية تعليماً خاصاً في مدارس الدولة ، وبث الثقافة الفرنسية في أوساطنا التي تحتاج الى ثقافة أجنبية . وهذان الأمران لا يسيئان إلينا . لأنه لا بد لكل عربي مثقف ثقافة حديثة من معرفة لغة أوربية غنية بالعلوم والفلسفة والأدب . واللغة الفرنسية من أغنى اللغات بها . فأي ضرر من اتقانها ، ومن التعرف إلى شعبها ، ما دامت لغتنا العربية مصونة الجانب ، وما دامت ثقافة العربية محتفظاً بها ؟ أما بعض الجهلاء أو ذوي الثقافة المحدودة الذين تسمعهم يتراطنون كالعبيد بلسان نصفه عربي ونصفه أعجمي ، تباهياً بأنهم يعرفون لغة أجنبية وبأنهم لا يتقنون لغة آبائهم وأجدادهم ، فلا خوف على لغتنا منهم ، لأن عددهم محدود ، لأنهم كمية مهملة في مجتمعنا الثقافي . فالعربي المثقف من أتقن العربية وحرص عليها ، وأتقن معها لغة علوم أوربية كالفرنسية والانكليزية . أما الذين يهملون العربية منا ويكتفون باللغات الأخرى فأقل ما يقال فيهم إنهم مارقون جديرون بالازدراء .

وكانت نسبة نشر التعليم في أيامنا هذه أن زاد عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية الحكومية السورية على خمسة أمثال عددهم أيام الدولة العثمانية ، كما زاد عدد التلميذات على عشرة أمثاله في تلك الأيام . وأصبح تلاميذ مدارس التجهيز ثلاثة أمثال عددهم السابق وتقدم تدريس اللغة العربية وآدابها ، في السنين الأخيرة ، تقدماً يدعو الى الارتياح سواء في مدارس الحكومة أم في المدارس الأهلية أم في المدارس الأجنبية . وكان لتأسيس الكالوريا السورية والكالوريا اللبنانية تأثير كبير بهذا الصدد . فقد اضطرت جميع المدارس الحكومية وغير الحكومية إلى العناية بلغة الضاد لكي يستطيع تلاميذها الحصول على هذه الشهادة ودخول المدارس العليا . وأصبح اليوم عندنا أساتذة لهذه اللغة لا عهد لنا بأمثالهم منذ بضعة قرون

وأهم معقل للغة العربية ، وآدابها في ديار الشام هو المجمع العلمي العربي ، مركزه في دمشق وله فرع في حلب . وقد أسس سنة ١٩٢٩ فأوى الى مدرستي الظاهرية والعادلية من جيلات أبنية القرن السابع للهجرة ، وأصدر مجلة بلغت مجلداتها حتى اليوم ٧٠ مجلداً . وأوجد دار كتب في دمشق وأخرى في حلب بلغت محتوياتها ٣٤٠٠٠ كتاب في دمشق

و٤٠٠٠ في حلب على حين أنه لم يكن في الخزانة الظاهرية عند ما تسلمها المجمع سوى ٤٠١٤ كتاباً [١] وما متحف دمشق اليوم سوى أثر من أعمال المجمع الفعل عنه حديثاً بعد ان كبر . وقد وضع بعض أعضاء المجمع عدداً كبيراً من المصطلحات العلمية ، وصححوا كثيراً من أغلاط الكتّاب ، وقوموا لغة دواوين الحكومة ، ونشطوا الادباء والمؤلفين ونشروا بعض كتبنا القديمة . وللمجمع ردهة للمحاضرات يحاضر فيها الأعضاء وغيرهم في كل أسبوع وله في دمشق وحلب غرف للمطالعة يؤمها في كل يوم عشرات من طلاب الفوائد.

أما الجامعة السورية فهي كما ذكرت وحيدة في نوعها من حيث اقتصارها في التدريس على اللغة العربية وقد أثبتت أنه بامكان هذا اللسان المبارك الاتساع للعلوم العلمية الحديثة ، خلافاً لما يراه بعض العلماء في مصر . والكتب التي ألفها أساتذتها بمختلف العلوم الطبية دليل على أنه كان بامكان الجامعة الأميركية في بيروت أن تداوم على التدريس بالعربية لو أتيح لها يومئذ عدد كاف من الاساتذة الذين يجمعون بين العلم واللغة .

ومهما يكن من أمر فالمجمع العلمي العربي والجامعة السورية هما اليوم أجود صلة بين الثقافة العربية والثقافة الأوربية .

وللحكومة الفرنسية في دمشق معهد فرنسي علمي مقره قصر آل العظم الشهير . وقد كانت الحكومة المشار اليها ابتاعت ذلك القصر من آل العظم لجعله القائمون عليه بادىء ذي بدء مقر حفلات وسهرات . ولكن السلطة الفرنسية سرعان ما فلبته الى معهد علمي على غرار معهد القاهرة الفرنسي ، فصار أعضاؤه يتدارسون العربية ويبحثون عن علمائنا وتاريخنا وآثارنا ، ويفشرون الكتب والبحوث الجليلة المفيدة . ولهم خزانة كتب فيها ١٠٠٠٠ مجلد . ومدير هذا المعهد المسيو لاروست يعد اليوم من علماء المشرقيات المشهود لهم ، وقد انتخبناه أخيراً عضواً في مجمعنا العلمي العربي .

والجامعة الأميركية في بيروت عناية بتدريس العربية . وقد أخذ العرب من أساتذتها يطبعون في السنين الأخيرة بعض كتبنا القديمة كتاريخ ابن الفرات وكديوان ابن الساعاتي كما أخذوا يؤلفون بالعربية أو ينقلون اليها جملا صالحة من الكتب المفيدة ككتب الأستاذ سعيد حمادة في النظم الاقتصادية في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، وكتاب الأستاذ أنيس المقدسي في العوامل الفعّالة في الأدب الحديث ، . وكتب الاستاذ أسعد رستم في

(١) أما اليوم فقد أوت كتب الظاهرية وما دليلة على أربعين ألف مجلد . وفي سنة ١٩٣٨ كنت محافظا لحلب فنبهت فيها دار الكتب الوطنية ، وكذلك بنيت سنة ١٩٤٤ دار الكتب الوطنية في اللاذقية عندما كنت محافظا لجبل العلويين . وقد بلغت كتب الاولى اليوم على ثلاثين ألف مجلد ، وكتب الثانية على عشرة آلاف مجلد .

« الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا » ، وكتابي الأستاذ جبرائيل جبور في الشاعر المشهور عمر بن أبي ربيعة الخ ...

أما الجامعة اليسوعية الفرنسية في بيروت فلها على العربية فضل لا ينكر . فقد طبعت في مطبعتها بعض مخطوطات لغوية قديمة للثعالبي وغيره ، وكتاب التهافت للغزالي ، وكتاب تهافت التهافت لابن رشد وهما من تراث الأجداد في الفلسفة . واختصر العلامة الأب لويس شيخو اليسوعي كتاب الأغاني ، وألف في شعراء العرب النصارى ، وأشرف على شؤون مجلة « المشرق » المشهورة . وقد حوت هذه المجلة في مجلداتها العديدة كثيراً من البحوث القيمة المفيدة . وللأب لويس معلوف اليسوعي معجم « المنجد » وهو أسهل معاجمنا الحديثة تناولاً ولا سيما على التلاميذ . وللأب بلو اليسوعي معجمان مدرسيان الأول فرنسي عربي والثاني عربي فرنسي . ولليسوعيين مطبوعات كثيرة غير ما ذكرت . ولهم جريدة « البشير » من أقدم جرائد بيروت العربية . وعندهم علماء ألفوا بالفرنسية كتباً قيمة مفيدة كجولجية لبنان للأب زمون وكنباتات سورية لغيره الخ . ويا ليتهم ينقلونها الى العربية .

وتقدمت الصحافة السياسية في العصر الحديث . وكثر عدد الصحف السياسية ، وارتقت لغتها ، لكنه تصدى لها المتعلم والجاهل ، والغني والفقير . أما الصحافة الأدبية والعلمية فلم يعش من صحفها ما يسد حاجة المتأدبين إلى المطالعة ، ولهذا انتشرت في الشام الصحف المصرية الغزيرة المادة الرخيصة الثمن كالمقتطف والهلال والثقافة والرسالة والمصور وغيرها . وقد قال لي مرة الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب « الرسالة » ان عدد قراء مجلته في الشام والعراق يفوق كثيراً عدد قرائها في مصر ، مع مراعاة نسبة السكان في كل قطر من هذه الأقطار

وقد فاق الشاميون غيرهم بتصنيف المعاجم اللغوية ، وأحدث معجم طبع في بيروت هو « البستان » لنعمة عبد الله البستاني . ولغويو غيرهم أيضاً بالمصطلحات العلمية . فألف الدكتور أمين باشا المعلوف معجم الحيوان ومعجم أسماء النجوم ، وألفت معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية . وهو يحتوي على نحو عشرة آلاف لفظة نصف ما يقابلها بالعربية على الأقل من وضعي أو تحقيقي ، ووضع أساتيذ الجامعة السورية عدداً كبيراً من مصطلحات العلوم الطبية نشروها في كتبهم وفي مجلة المعهد الطبي العربي . ويرى طلاب الفوائد مئات من المصطلحات العلمية في مجلدات مجلة المجمع العلمي العربي .

ويتضح من هذه الخلاصة أن لساننا الضادي يتقدم اليوم تقدماً مطرداً في ديار الشام ، شأنه في مصر والعراق . ولكن هذا اللسان في حاجة الى توحيد الجهود في سبيله ، في الأقطار الثلاثة المذكورة ، لكي يصبح صالحاً لاستيعاب جميع العلوم والمخترعات الحديثة .